الفصل الرابع

المندائية والإسلام

﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف بعض المسلمين للمندائية

الصابئة المندائية هي جماعة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم والتي تعتبر يحيى عليه السلام نبيّاً لها، يقدّس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها، ويعتبر الاتجاه نحو نجم القطب الشمالي وكذلك التعميد في المياه الجارية من أهم معالم هذه الديانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة بالكتابيّين من اليهود والنصارى.

الصبأ اسم أطلقه الجاهليون على المسلمين

كثيرة هي النماذج التي تدل على تسمية أهل الجاهلية، المسلمين بالصابئين، لكن تلك التسمية كانت قليلة الاستخدام. فكانت تطلق أحياناً من بعض العوام المشركين للدلالة على انتقادهم للمسلمين والاستخفاف بدعوتهم. ومن الثابت أن المسلمين كانوا يصلحون ذلك الخطأ فيقرّون بأنهم مسلمون وليسوا بصابئة. فكان هدف المشركين من تلك التسمية الزعم بأن محمداً عليه السلام لم يأت بجديد، بل عاد لدين قديم. لكن تلك التسمية اختفت نهائياً بعدما عرف الدين الجديد، وبعدما اطلع الجميع على نصوص القرآن الكريم التي أبهرتهم بعظمتها.

صبأنا

يروى أنه بسبب اعتناق قبيلة بني جذيمة للإسلام، جذيمة بن عامر، من كنانة التي تقاتل معها خالد بن الوليد في السنة الثامنة للهجرة (غزوة القميط) فإنها كانت تقول" صبأنا، صبأنا ".

عمر الصابئي

ولأن عمر بن الخطاب اعتنق الإسلام، سمي بـ "الصابئي".

ضربوا أبا ذر

وعندما أسلم أبوذر الغفاري، كان أهل مكة يضربونه لأنه خرج عن ملّتهم. وأثار فيهم الفتنة وأصبح صابئياً برأيهم..

المشركون كانوا يسمّون المسلمين بالصبأة

وعندما أراد (معصم بن عدي) وهو من أشراف قريش، أن يزوج ابنه من بنت أبي بكر، خشي أن يؤثر " الصبأة " على ابنه، لأن المشركين كانوا يسمون المسلمين بـ "الصبأة".

ألقوا الصباء على متون الخيل

وفي غزوة حنين قال دريد بن الصمة [كان من أشراف بني حشم] لأحد كبار القوم : " ثم ألقى الصباء على متون الخيل ".

دين الصابئين

ولبيد الذي كان أيضاً قد ذهب إلى الرسول ليطلع على الأمور، حدّث أهله، لدى عودته، عن القيامة والجنة وجهنم، وسمى شاعر يدعى (صرافة) هذا الدين "دين الصابئين" [هو صرافة بن عوض بن الأحوض: الاغاني للاصفهاني ١٣١:١٥] .

رفض المسلمين للتسمية

ويذكر أنه عندما أسلم عمر بن الخطاب، نشر جميل بن معمر [مجمع البيان ٤:٣٣٤ ل] وسط قريش أن عمر بن الخطاب صار صابئياً. بيد أن عمر نفى ذلك معلناً اعتناقه الإسلام. لكن قريشاً قالت: " صبأ عمر "[سيرة ابن هشام ١:٣٤٩] وإن دل هذا النفي على شيء فإنما يدل على عدم تقبل المسلمين هذه التسمية، في حين أنهم لم يعارضوا إطلاق تسمية " الحنيف " أو " الأحناف" عليهم، وهذا ماحدا باللغويين

obeikandl.com

العرب ان يشتقوا كلمة "صابئ" من "صبأ" التي تعني تبديل الدين. بيد أن علماء اللغة المعاصرين سلكوا طريقاً آخر.

الصابئة المندائيّون بعد الفتوحات الإسلامية

الظروف التي مر بها الصابئة بعد انتصار المسلمين في معركة القادسية على الفرس سنة ٦٣٥م ودخول العراق في إطار الحكم الإسلامي وطبقاً لأحكام الإسلام فإنه يتعين على سكانه أن يعتنقوا الإسلام عدا من هم من أهل الكتاب والصابئة هم واحدة من أصحاب الكتاب حيث جاء ذكرهم في العديد من سور القرآن الكريم. في القرن الثالث الهجري كان العراق يمر بأوضاع اجتماعية بالغة التعقيد وكانت التناقضات الفكرية في المجتمع العربي الإسلامي قد بلغت من الحدة درجة دفعت إلى انفجار حركات وصراعات اجتماعية واسعة ومثيرة شملت أعداداً غفيرة من الناس وامتدت إلى اقاليم شاسعة، وأحدثت أصداء مختلفة ابرزها ثورة بابك الخرمي، وثورة الزنج، وحركة القرامطة، لقد هزت هذه الحركات الثلاث المجتمع ونشطت صراعاً فكرياً واسعاً، لاسيما في العراق مركز الخلافة الإسلامية، وقد مسّت حياة الصابئة في الكثير من الجوانب مما جعلهم يؤثرون الابتعاد كلية عن مجرى الأحداث دفعاً للمخاطر التي قد تتهددهم وتهدد دينهم، وإن ردة فعلهم كانت مزيداً من الانغلاق على النفس والإيغال في تصليب القشرة الطقسية لمعتقداتهم الدينية، أما المثقفون الصابئة فقد تأثروا من جانبهم بما أحاطهم من تقدم فكري وحضاري عام شمل الخلافة العباسية كلها، ويورد مثال الصراع الذي خاضه الفيلسوف الطبيب **ثابت بن قرة** مع أفراد ملته من الصابئة أدى به إلى ترك مدينته حران والتوجه نحو بغداد إلا أنه لم يتخل عن دينه حتى بعد أن علت منزلته لدى البلاط العباسي . إلا أن بعضهم تحمل كثيراً من العناء دفاعاً عن معتقداته مثل الكاتب الشهير "**أبو إسحق** إبراهيم بن هلال الصابي" الذي خدم في بلاط معز الدولة البويهي . فقد حاول عادل الدولة البويهي ان يرغمه على اعتناق الإسلام لكنه رفض. وبالمقابل فإن الكثير منهم اعتنقوا الإسلام.

العزلة المندائية

وأثر غزو المغول للعراق، وتدهور الخلافة العباسية، تشتت الصابئة وآثر بعضهم العودة إلى ديار مضر في اعالي الفرات، وآخرون انحدروا باتجاه الجنوب ليلتحقوا بإخوانهم الذين يقطنون بطائح ميسان، ويحتمون بالعزلة هناك . ويسود الاعتقاد بأن الذي صان المجموعة وأبقاها طائفة متماسكة، وإن أصبحت جماعة صغيرة، رغم كل ما واجهته في القرون التالية، لاسيما في العهد العثماني، ليس المزايا الروحية لمعتقداتهم وإنما الروح الدوكماتية التي فرضت نفسها على هذه المعتقدات، وتحولت صرامتها إلى مصدة اجتماعية حقيقية تحول دون تبعثر الجماعة، كذلك ساعدتها العزلة الشديدة التي التجأت اليها في منطقة جغرافية مواتية تماماً لهذا الانعزال حتى الثلث الأول من القرن العشرين .

وفد الصابئة وسعد بن أبي وقّاص

هناك نص مندائي تاريخي. وهو الذي يبين بأنه عندما جاء الإسلام وجعل يميز بين الأديان ذات الكتب المنزلة والأديان التي لم تكن موجهة من السماء قدم الريشما (آنوش بن دنقا) ٦٣٩ - ٦٤٠ ميلادية - الذي ترأس وفد الصابئة المندائيين كتابهم المقدس كنزاربا (الكنز الكبير) للقائد العربي الإسلامي آنذاك، وربما كان سعد بن ابي وقاص، وأطلعه على ديانتهم كما ذكر له بأن نبيهم هو يحيى بن زكريا الذي يجله المسلمون فقبل منهم ذلك وأكرمهم.

روايات إسلامية عن الصابئة

ذكرهم أبو فرج النديم (ت٣٧٧هـ)، وأبو الحسن المسعودي(٣٤٦هـ) وأبو الريحان البيروني (ت٤٤٠هـ)، بما هم عليه الآن، وذكر آخرون علاقتهم بأنبياء وشخصيات قديمة، لا يخلو منها كتابهم "الكنزاربا". وأقدم من هذا قال الطبري مفسراً معنى الصحف الأولى: هي التي "نزلت على ابن آدم هبة الله، وإدريس عليهما

السلام". وقصة معراج دنانوخت (إدريس)، والكتب التي نزلت عليه، ومعراجه إلى السماء السابعة، واضحة في نصوص "الكنزاربا".

ينبئ الفقه والتاريخ الإسلاميان عن اعتراف ضمني وواضح بالدين المندائي، ولو سمع الخلفاء صوت المتشددين على شاكلة أبي سعيد الأصطخري وابن فضلان لما ظل على وجه الأرض مندائي، ولو كان وجودهم ينافي عقيدة الدولة الدينية ويتعارض معها لاجتهد الفقهاء وتحايلوا على إزالتهم، ولو رأى الناس منهم مثلما ورد في رسالة الشيخ العقيلي لهبت العشائر والمحلات على قمعهم وهم القلة القليلة بين الملايين.

رواية الطبري

قال الطبري كان "مُلك بيو راسب في عهد إدريس، وقد وقع إليه كلام من كلام آدم، صلوات الله عليه، فاتخذه في ذلك الزمان سحراً، وكان بيو راسب يعمل به، وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته، أو أعجبته داية أو امرأة نفح بقبضة له من الذهب". وبيوراسب "دعا إلى ملة الصابئين... وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام".

ويعدُّ الصابئة الحاليون كتابهم كتاب آدم ويعدون إدريس ونوح من عظمائهم.

رواية المسعودي

يذكر المسعودي - غير الرواية الخاصة بالمندائيين الحاليين – أن الصابئة "تزعم أخنوخ بن يرد هرمس، ومعنى هرمس عطارد، وهو الذي أخبر الله في كتابه أنه رفعه مكاناً علياً، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة، وهو أول مَنْ درز الدروز، وخاط بالإبرة، وأُنزلت قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة، وأُنزلت على شيت تسع وعشرون صحيفة، فيها تهليل وتسبيح".

تقترب رواية المسعودي إلى حد كبير من قصة "الكنزاربا"، فأخنوخ بن يرد هو دنانوخت نفسه وهو هرمس، وهرمس هو إدريس، وهو الذي عرج إلى السماء

السابعة، المكان العلي، ونزلت عليه الصحف، التي كان يحتفظ بها في غرفة مغلقة، ثم نزلت عليه ثمانية كتب أخرى، لم يصح منها غير الكتاب الثامن.

ويربط المسعودي بين الصابئة القدماء الحرانيين وبين المندائيين الحاليين، ثم اختصاص الأخيرين باسم الكيماريين، مشخصاً مؤسسهم الأول في الديار الهندية، قال: "رجل يقال له بوداسف أحدث مذهب الصابئة، وقال: إن معالي الشرف الكامل والصلاح الشامل، ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع، وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات، وهي التي برزوها من أفلاكها وقطعها مسافاتها، واتصالها بنقطة، وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم، من آثار من امتداد الأعمار وقصرها، وتركيب البسائط، وانبساط المركبات، وتتميم الصور، وظهور المياه وفيضها، وفي النجوم السيارة، وفي أفلاكها التدبير الأعظم وغير ذلك... فاجتذب جماعة من ذوي الضعف في الآراء، فيقال إن هذا الرجل أول مَنْ أظهر مذهب الصابئة من الحرانيين، والكيماريين، وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرانيين في نحلتهم وديارهم بين واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام".

وربما قصد المسعودي في حديثه حول كهنة الصابئة" أعلى كهنتهم يسمى رأس كمري" برئيس أمة أو ريش أمة، حسب اللفظ المندائي، وهو أعلى درجة دينية بين المندائيين الحاليين. والمسعودي قد ينفرد في تسمية الصابئة المندائيون بالكيماريين. وهي تعني "كهنة الآلهة الكاذبة" و"كهنة الأصنام" أو"كهنة عجول بيت أوان"، والجملة الأخيرة، حسب "نبوءة صفينا" من العهد القديم تعني السامرة، وهم فرقة يهودية تخالف اليهود في أمور عديدة، وتعني الجملتان الأخيرتان الصابئة، ففي العرف اليهودي أنهم عبدة أصنام.

وإن صح ذلك فالتسمية من أسماء الأضداد، مثلما يسمى القبيح بالجميل، والمعروف عن الصابئة أنهم يحرمون الختان لأسباب تتعلق بتقديس ما خلقه الله، أو تتعلق التسمية بالستر والإخفاء، والمندائيون لا يشهرون طقوسهم، فهم ديانة أقرب إلى السرية، ومن معاني الكمر الغطاء والستر، أو لها صلة بالشعر والصابئة يشددون على عدم حلاقته، فمن معاني الكمر منطقة من الشعر وهي فارسية.

ويبقى الاحتمالان الأول والثاني هما الأقرب إلى تسميتهم بالكيماريين. فالمسعودي استقى معلوماته السالفة الذكر من أحد الكهنة، قصها عليه كما قص الكهنة المعاصرون أسرارهم وطلاسمهم لليدي دراور، ولم تحفل بها إلا بعد صحبة عشرين عاماً.

السيوطي ينفي عنهم عبادة النجوم

ورد معراج إدريس (دنانوخت) في "الكنزاربا" والقرآن الكريم، وقصته واحدة من المتوافقات بين الكتابين. ورد في الآية: "وأذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً، ورفعناه مكاناً علياً". وفي صلة إدريس بالصابئة وفي محاولة تنفي عنهم عبادة النجوم أو الأصنام قال السيوطي: "إن النبي إدريس، عليه السلام، دعا الخلق إلى الله تعالى فأجابوه، وكانت عقيدته الصابئة، وهي توحيد الله تعالى والطهارة والصوم وغير ذلك من رسوم التعبدات".

أبو فرج النديم: المغتسلة

سمى أبو فرج النديم المندائية بالمغتسلة، وهو أقرب الأسماء إليهم، قال: "وهؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح (الأهوار) وهم صابئة البطائح، يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه". وقال حول عقائدهم: إنهم "على مذاهب النبط القديم، يعظمون النجوم، ولهم أمثلة وأصنام، وهم عامة الصابئة المعروفين بالحرانيين، وقيل إنهم غيرهم جملة وتفصيلاً".

وفي العبارة الأخيرة تراجع النديم عن الخلط بين الحرانيين والصابئة المندائيين رغم أنه نقل قصة عن أبي يوسف أيشع القطيعي النصراني أشارت إلى حادثة غريبة تؤرخ إلى سبب اتخاذ الحرانيين اسم الصابئة، بعد أن خيرهم الخليفة عبد الله المأمون بين الإسلام أو الالتحاق بدين من الأديان الكتابية، واختاروا الصابئية لوردوها في القرآن بناءً على نصحية أحد العارفين.

وأكثر الظن، أن النديم في تسمية ملة من الملل بالرشيين كان يعني دون قصد المندائيين، وربما سجل ذلك نقلاً من أفواه الآخرين، يظهر ذلك من اهتمام هؤلاء

بالماء الحي والظلام، فقد جاء في مقالة الرشيين، وللاسم متعلق مباشر برش الماء:"لم يكن غير الظلمة فقط، وكان في جوفها الماء، الريح، وفي الريح الرحم، وفي الرحم المشيمة، وفي المشيمة البيضة، وفي البيضة الماء الحي، وفي الماء الحي ابن الأحياء العظيم، وارتفع إلى العلو، فخلق البريات والأشياء والسموات والآلهة".

هم الصابئيون الإبراهيمية

أورد أبو فرج النديم أموراً هامة أخرى، لها صلة بكتاب الصابئة المقدس، ذلك الكتاب الذي رفعه رئيس كهنتهم، المدعو دنقا، يوم دخول العرب المسلمين العراق، ليبين لهم أن قومه من أهل الكتاب. قال النديم عن أحمد بن عبد الله بن سلام مولى هارون الرشيد: "ترجمت هذا الكتاب من كتاب الحنفاء، وهم الصابئيون الإبراهيمية، الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام، وحملوا عنه الصحف، التي أنزلها الله عليه، وهو كتاب فيه، إلا أني اختصرت منه ما لابد منه ليعرف به سبب ما ذكرت منه اختلافهم وتفرقهم، وأدخلت فيه ما يحتاج إليه من الحجة في ذلك من القرآن والآثار، التي جاءت عن الرسول (ص) وعن أصحابه، وعن مَنْ أسلم من أهل الكتاب".

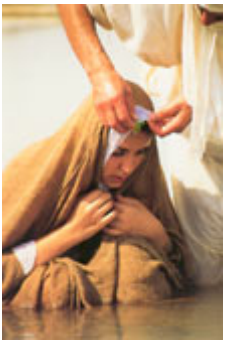

الحق المتسامي

وأشار إليهم، لا عن قصد أيضاً، بالكشطيين، ومعروف أن كلمة كشطا كلمة مندائية تعني العهد أو الحق، وتتكرر كثيراً في كتاب "الكنزاربا" وتأتي

مركبة: مشوني كشطا، "أي الحق المتسامي، وهو عالم مثالي وموطن الآدميين السماويين، وفيه أشباه المخلوقات والأدوات الأرضية، ويكون موقعه في الشمال من الكون، حيث يقع عالم النور". جاء في مقالة الكشطيين: "إنه قبل كل شيء الحي العظيم، فخلق من نفسه ابناً وسماه نجم الضياء، ويسمونه الحي الثاني (لعله منادهيي) ويقولون بالقربان والهدايا والأشياء الحسنة".

قد ينفرد النديم في ذكر المندائيين بالتسميات الدالة عليهم، مع الاختلاف في المقالات والعقائد، وينفرد أيضاً في ذكر علاقتهم بالمانوية، وهي ديانة وفلسفة في آن واحد، ظهرت بالعراق في القرن الثالث الميلادي، من أهدافها إقامة كنيسة بابل وأن الوحي والاجتماع المانوي الرسمي لا يتم إلا ببابل، وهذه العلاقة تقدم برهاناً على قدم المندائية بجنوب العراق، حيث جداول المياه العذبة بالأهوار.

بدأت المانوية بصوت سمعه فاتق والد ماني، ناداه من الهيكل قائلاً: "لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً ولا تنكح بشراً، تكرر ذلك عليه دفعات في ثلاثة أيام، فلما رأى فاتق ذلك لحق بقوم كانوا بنواحي دستميسان معروفين بالمغتسلة، وبتيك النواحي والبطائح بقاياهم إلى وقتنا هذا (القرن الرابع الهجري)، وكانوا على المذهب الذي أمر فاتق الدخول فيه، وكانت امرأته حاملاً بماني، فلما ولدته زعموا أنها كانت ترى له المنامات الحسنة، وكانت ترى في اليقظة كأن أحداً يأخذه، فيصعد به إلى الجو ثم يردّه".

وأخيراً، لا ندري إن كان اسم ماني مشتقاً من المانا المندائية، التي تفيد عدة معانٍ، كل واحدة منها مناسبة لصفات الأنبياء، وهي: العقل، الوعاء، النفس، وقد تأتي بمعنى ملاك ذي مرتبة سامية.

البيروني: الحرانية ليسوا صابئة

روى أبو الريحان البيروني عن آخر: "إن هؤلاء الحرانية ليسوا الصابئة بالحقيقة، بل هم المسمون في الكتب بالحنفاء والوثنية، فإن الصابئة هم الذين تخلفوا ببابل من جملة الأسباط الناهضة في أيام كورش، وأيام أرطحشست إلى بيت المقدس، ومالوا إلى شرائع المجوس، فصبوا إلى دين بختنصر، فذهبوا مذهباً ممتزجاً من المجوسية

واليهودية كالسامرة بالشام، وقد يوجد أكثرهم بواسط وسواد العراق بناحية جعفر والجامدة ونهري الصلة، منتمين إلى أنوش بن شيت، ومخالفين للحرانية عائبين مذاهبهم لا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة، حتى أنهم يتوجهون في الصلاة إلى جهة القطب الشمالي والحرانية إلى الجنوبية".

ولرواية البيروني صلة بمندائيي اليوم، فقد ورد في كتاب "كنزاربا" فصلاً تحت عنوان "تساؤلات آنوش"، جاء في بدايته: "باسم الحي العظيم.. جالس في بلد الضياء، متطلع إلى الأرض والسماء، أنا أنوش الأمين بن شتيل (شيت) الأمين بن آدم الأمين ابن الملائكة ذوي الوقار، ابن بلد المعرفة والتسبيح والأنوار". غير أن البيروني، الذي نقل هذه المعلومة الهامة، أعتذر في كتاب آخر عن ذكر المندائيين، بقوله: **"الصابئون في كتاب الله تعالى مقترنو الذكر بالطوائف الذين قدمنا ذكرهم، فأما الكائنون بسواد العراق، حوالي قرى واسط، فما حصلت من أسبابها على شيء البتة".**

رد أبو الريحان على روايات اتهمت الصابئة بأمور منافية لوداعتهم وإيمانهم العميق، مثل ذبح أولادهم وتقديمهم قرابين للكواكب، قال: "ونحن لا نعلم منهم إلا أنهم أُناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح، ويصفونه بالسلب لا الإيجاب كقولهم لا يُحدُّ ولا يُرى ولا يُظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً".

الجاحظ: خصاء الصابئة

جاء ذكر الصابئة المندائيين عند ابن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وسنذكرها لا لأهميتها التاريخية بل لمخالفتها الواقع، ونميل إلى أن ابن بحر كان يقصد المندائيين بالذات، فهو من البصرة حيث ديارهم في جنوب العراق، وابن بحر كأديب، صاحب نثر فني، يدخل ما يعرض من أخبار وطرائف بلا تمحيص، وربما خلق الرواية خلقاً. كتب تحت عنوان "خصاء الصابئة": "وأما الصابئون، فإن العابد منهم ربما خصى نفسه، فهم في هذا الموضع قد تقدم الروميّ، فيما اضطر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة بخصاء الولد التام، وبإدخاله النقص على النسل، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه، ويسمر

عندهم ... وقد خصى نفسه من الصابئين رجال، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم".

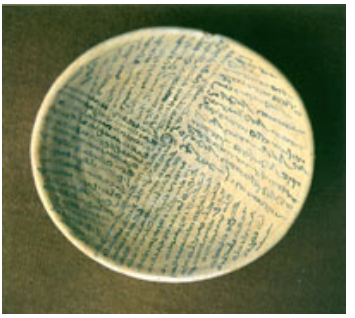

إن كلام الجاحظ مردود من ألفه إلى يائه، إذا كان الأمر يتعلق بالصابئة المندائيين، فقد حرمت عقيدتهم الجنة على من يعزف عن الزواج، ولا يولون عاقراً منصباً دينياً، والبوثة (الآية) التالية من كتابهم المقدس كفيلة بهذا الرد:

باسم الحي العظيم

"أيها العزاب

أيتها العذارى،

أيها الرجال العازفون عن النساء،

أيتها النساء العازفات عن الرجل،

هل وقفتم على ساحل البحر يوماً؟

هل نظرتم إلى السمك كيف يسبح أزواجاً؟

هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم،

هل تأملتم الأشجار واقفة تشرب الماء على ضفافه وتثمر؟

فما بالكم لا تثمرون؟

. . .

"الرجال الزاهدون في النساء،

والنساء الزاهدات في الرجال كذلك يموتون،

ومصيرهم الظلام حين من أجسادهم يخرجون،

أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور"

المترجم أحمد بن سلام

قال المترجم أحمد بن سلام أيضاً: "ترجمت هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل، وكتب الأنبياء والتلامذة، من لغة العبرانية والصابية وهي لغة أهل الكتاب إلى اللغة العربية، حرفاً حرفاً، ولم اتبع في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف، ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته، ولم أنقص إلا أن يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب".

مولى هارون الرشيد: الكتب السماوية

وعدّ مولى هارون الرشيد أنّ الصابئة يمتلكون كتاباً سماوياً، وهو واحد من الكتب السماوية، وكتب: "جميع ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب، من ذلك مائة صحيفة أنزل الله تعالى فيما بين آدم وموسى، فأول كتاب أنزله الله جل اسمه على شيث عليه السام، وهي إحدى وعشرون صحيفة، والكتاب الثالث أنزله الله على أخنوخ (مصحف من الاسم المندائي دنانوخت) وهو إدريس عليه السلام، وهو ثلاثون صحيفة، والكتاب الرابع أنزله جل اسمه على إبراهيم عليه السلام وهو عشر صحائف".

جدل إسلامي عن تاريخ كنزا ربا

الصابئيون يعتقدون أن كتاباً من كتبهم نزل على يحيى بشهادة القرآن: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحلم صبياً". غير أن المفسرين المسلمين أشاروا إلى أنه كتاب "التوراة" لا الكتاب المندائي.

تجعلنا رواية النديم عن مولى هارون الرشيد نشكك فيما ذهب إليه الكرملي إلى أن تاريخ كتابة "الكنزاربا" كان بداية القرن الثامن الميلادي، وبالتحديد السنة (٧٠٨ الميلادية)، وحسب قوله توصل إلى ذلك بعد قراءة حوادث الكتاب. وغير ما جاء في "الفهرست"، عن مولى الرشيد، ذكر ابن أبي أصيبعة أن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ، مصنف كتاب "شرح مذهب الصابئي"، ترجم كتاباً إلى العربية

بعنوان "السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون"(٩٨)، ولا يستبعد أن يكون أحد كتبهم الحالية.

هناك تأثيرات مندائية، تعد من ثوابت الدين، قد دخلت بعض الحركات الإسلامية ومنها تحريم الختان، فقد حرم بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية الختان للسبب نفسه، وهو عدم إنقاص ما خلق الله في الجسد، فقد شاع عن عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب أنه شرع لأصحابه، وهم جماعة من الشيعة "تحريم الختان، وقال (ما قالته الصابئة): إن المختتن راغب عن خلق الله، ولولا الشعر والظفر ميتان وعلى الحي مفارقة الميت ما قلمنا ظفراً ولا خففنا شعراً".

في طقس أو ممارسة الختان يقف المندائيون واليهود على طرفي نقيض، فبالوقت الذي جعلته اليهودية شرطاً أساسياً من شروط الديانة، جعلت المندائية ممارسته خروجاً من الديانة. فالذي لا يختتن لا يكون يهودياً، بمعنى "الختان علامة انتماء للشعب اليهودي، وعلامة عهد بين الله وهذا الشعب"، والذي يختتن ليس مندائياً، لأنه تجاوز فطرة جسد الإنسان، ولا يجوز إنقاص خلقة الله.

انتصار هيبل زيوا

ومن التاثيرات المندائية الأخرى في المحيط الإسلامي نرى قصة صراع وانتصار هيبل زيوا المندائي متجسدة في مقالة "أصحاب بن حرب" في محمد بن الحنفية، يوم يخرج من البلد الأمين ويقضي على الجبابرة بسيف من شق صاعقة يكور به الشمس "ثم يعود في عمق الأرض حتى إذا بلغ الماء الأسود والجوّ الأزرق صاح به صائح بسمع الثقلين (الجن والأنس): قد شفيت قد شفيت، فيمسك عند ذلك ويعود إلى البلد الأمين". فالماء الأسود عند المندائيين هو مكان كائن الظلام الروهة في أسفل السافلين من طبقات الأرض، والجو الأزرق هو لون ثيابها، لذا يكره الدين المندائي ارتداء الثياب الزرقاء.

صابئة مدينة واسط
خلال العصر العباسي ٣٢٤-٦٥٦ هـ

بعد سقوط الحكم الأموي وانتقال الخلافة للعباسيين وبناء بغداد على يد (أبو جعفر المنصور) عام ١٤٥هـ ، واختيارها عاصمة للدولة العباسية، بقيت واسط من الأقاليم المهمة في العراق، وخلال القرن الرابع الهجري حدثت تقسيمات إدارية مهمة في العراق أصبحت واسط إحدى الولايات المهمة والمرموقة حيث ضمت مدناً عديدة وقرى وقصبات كثيرة .

ويقول الأستاذ عبد القادر سلمان المعاضيدي في كتابه (واسط في العصر العباسي): وكان يسكنها خليط من العرب والفرس والاتراك والديلم والنبط والزط، وقد تعايشت فيها طوائف دينية إلى جانب المسلمين، اذ كان هناك نصارى ويهود وصابئة مندائيون .

ويوضح الأستاذ المعاضيدي : لقد كانت مناطق وجودهم (الصابئة المندائيين) تمتد من واسط إلى خوزستان في منطقة (الطيب ماثا) بعد هجرتهم ونزوحهم من مدينة حران وقبلها من فلسطين، كما ورد ذلك في أحد كتب المندائيين كتاب (حران كويتا) المدون باللغة المندائية.

كما أن هناك العديد من المصادر تشير إلى أنهم سكنوها قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل، وعندما جاء الفتح الإسلامي ذهب وفد من الصابئة لمقابلة القائد العربي المسلم وعرضوا عليه أمرهم فأقرهم على دينهم فأكسبهم ذلك قوة ومنعة باعتبارهم أصحاب كتاب وظلوا بين المسلمين يؤدون الجزية . فقد كتب الأستاذ عزيز سباهي في كتابه المهم: (جذور الصابئة المندائيين ص١٩٣ مانصه (**أنش بر دنقا**، كان يشغل أعلى المراكز الدينية عند المندائيين، قد ذهب وبصحبته مجموعة من وجهاء المندائيين إلى قائد الجيش الإسلامي وأوضح له طبيعة دينهم. وعرض عليه كتابهم الديني (الكنزا) لكي يضمن لقومه التسامح الذي خص به القرآن أهل الكتاب، وقد تم له ذلك).

وفي صفحة ١٨٠ من كتاب الأستاذ عزيز سباهي يقول : (ورد في كتاب (حرّان كويتا) أنهم كانوا جماعة كبيرة، وأن في الأيام الأولى من وجودهم في بلاد ما بين النهرين وليس في ميسان وحدها ، كان هناك أربعمئة مشكينا (أي مندي، وهو المعبد المندائي) .

وعن دور الصابئة في المساهمة في بناء الحضارة في بلاد الرافدين يشير الأستاذ (عزيز سباهي) في صفحة ٩ من كتابه (جذور الصابئة المندائيين) (لعب الصابئة، رغم كونهم طائفة دينية صغيرة، دوراً ملحوظاً في تطور الحياة الروحية والفكرية في بلاد مابين النهرين خلال ظهور المسيحية وانتشارها أو بعد ظهور الإسلام، ولاسيما بعد ازدهار الحضارة العربية ـ الإسلامية أيام العباسيين، ولمعت من بينهم شخصيات علمية أسهمت بقسط وافر في إعلاء شأن الحضارة العربية ـ الإسلامية) .

ويشير الأستاذ عبد القادر سلمان المعاضيدي في كتابه (واسط في العصر العباسي) لقد سكن الصابئة المندائيون في الجانب الغربي من مدينة واسط وكان لهم درب خاص بهم سمي(درب الصاغة) لأنهم كما يشير المؤرخ (الخطيب البغدادي) اشتهروا بمزاولة الصياغة كحرفة خاصة بهم .

ويشير الأستاذ عبد القادر المعاضيدي في بحثه لقد ساعد وجود الصابئة في **واسط** على ظهور علم الفلك فيها لمعرفتهم الواسعة في علم الفلك والرياضيات. تلك المعرفة التي نقلوها معهم من مدينة حران المشهورة في علم الفلك. ويشير إلى وجود (البيت المندائي) الذي يعد من أهم البيوتات التي ساهمت في بناء وتطوير الحياة الفكرية والثقافية في واسط، فيقول (إذ اشتهرت في واسط عائلة عريقة في القضاء والعلم والرواية وهي من أصل (مندائي) ساهمت في تطور الحياة العلمية فيها .

رأي ابن تيمية بالصابئة

من الجائز أن تكون طائفة مشركة من الصابئة كانت قد وجدت في القرون الأولى للإسلام ثم اندثرت واختفت، أو أنها انحلّت في الوسط الإسلامي.، فبعض المصادر ومنها ابن تيمية تؤكد وجود صابئة مشركة تعبد النجوم. فقد حقق شيخ

الإسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين ط٦ (ص٤٥٤ وما بعدها) حقيقة الصابئة كما وردت في القرآن الكريم فقال:

إن الصابئة **نوعان**: صابئة حنفاء وصابئة مشركون.

أما **الصابئة الحنفاء** فهم بمنزلة من كان متبعاً لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتحريف والتبديل من اليهود والنصارى. وهؤلاء حمدهم الله وأثنى عليهم.

والثابت أن الصابئين قوم ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي، وهم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، ولكنهم عرفوا الله وحده، ولم يحدثوا كفراً، وهم متمسكون "بالإسلام المشترك" وهو عبادة الله وحده وإيجاب الصدق والعدل وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه وهم يقولون "لا إله إلا الله" فقط وليس لهم كتاب ولا نبي. والصحيح أنهم كانوا موجودين قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأرض اليمن.

وأما الصابئة المشركون فهم قوم يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور ويصلون، فهم يعبدون الروحانيات العلوية.

وعلى ذلك فمن دان من الصابئة بدين أهل الكتاب فهو من أهل الكتاب، ومن لم يدن بدين أهل الكتاب فهو مشرك ومثالهم من يعبد الكواكب. كمن كانوا بأرض حران عندما أدركهم الإسلام وهؤلاء لا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم وإن أظهروا الإيمان بالنبيين.

وقد أفتى أبو سعيد الإصطخري بأن لا تقبل الجزية منهم، ونازعه في ذلك جماعة من الفقهاء.

إن تلك الفتاوى قد تكون نتجت عن وجود طائفة قديمة من الصابئة منحرفة تعبد الكواكب والنجوم. ونحن مسلمي اليوم رغم اقتناعنا بقدرة ابن تيمية وبسعة علمه، فلاننسى بأن نصوصه ليست مقدسة، وليست حكماً نهائياً. فصابئة اليوم نراهم يوحّدون الله سبحانه، ويرجعون عقيدتهم إلى النبي آدم، فيعتبرونه أبا الأنبياء.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية

فإن الصابئة الخارجين عن التوحيد لله وحده لا شريك له، كالمشركين والمجوس مثل فرعون موسى ونمرود إبراهيم وغيرهم من البشر معترفون بالوجود المطلق ولهذا كان أفضل علوم الفلاسفة هو علم ما بعد الطبيعة أعنى بهم الفلاسفة المشائين الذين يتبعون أرسطو فإنه عندهم المعلم الأول الذي صنف في أنواع التعاليم من أجزاء المنطق والعلم الطبيعي كالحيوان والمكان والسماء والعالم والآثار العلوية وصنف فيما بعد الطبيعة وهو عندهم غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم وهو العلم الذي يسميه متأخرو الفلاسفة كابن سينا العلم الإلهي وموضوع هذا العلم عند أصحابه هو الوجود المطلق ولواحقه مثل الكلام في الموجود والمعدوم ثم في تقسيم الموجود إلى واجب وممكن وقديم ومحدث وعلة ومعلول وجوهر وعرض ونحو ذلك، ثم الكلام في أنواع هذه الأقسام وأحكامها مثل تقسيم العلل إلى الأنواع الأربعة وهى الفاعل والغاية اللذان هما سببان لوجود الشيء والمادة والصورة اللذان هما سببان لحقيقة المركب وتقسيم الأعراض إلى الأجناس المقالية التسعة وهى الكيف والكم والوضع والأين ومتى والإضافة والملك وأن يفعل وأن ينفعل أو جعلها خمسة على ما بينهم من الاختلاف (مجموع الفتاوى ج ٢ - صـ ٨٣).

وصف بعض السلف الصابئة بأنهم يعبدون الملائكة وكذلك في الكتب المعربة عن قدمائهم أنهم كانوا يسمونها الآلهة والأرباب الصغرى كما كانوا يعبدون الكواكب أيضاً والقرآن ينفي أن تكون أربابا أو أن تكون آلهة ويكون لها غير ما للرسول الذي لا يفعل إلا بعد أمر مرسله ولا يشفع إلا بعد أن يؤذن له في الشفاعة وقد رد الله ذلك على من زعمه من العرب والروم وغيرهم من الأمم فقال تعالى :

﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾

وقال تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾

وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾.

وقد تقدم بعض الأحاديث في صعق الملائكة إذا قضى الله بالأمر الكوني أو بالوحي الديني

وقال تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، وقال تعالى: ﴿بل عباد مكرمون﴾ مجموع الفتاوى ج ٤ - صـ ١٣٢.

وكان الجعد بن درهم هذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانيين المشركين كما أن كسرى ملك الفرس والمجوس وفرعون ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وبطليموس ملك اليونان وقيصر ملك الروم فهو اسم جنس لا اسم علم.

فكانت الصابئة إلا قليلاً منهم إذ ذاك على الشرك وعلماؤهم هم الفلاسفة وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً بل مؤمن بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. لكن كثيراً منهم أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا وصاروا كفاراً أو مشركين فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك كفاراً أو مشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل مجموع. (الفتاوى ج ٥ - صـ ٢١).

والمقصود أن قوله: **(منزل من ربك)** فيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ولهذا قال السلف منه بدأ أي هو الذي تكلم به لم يبتدئ من غيره كما قالت الخلقية و منها أن قوله : **(منزل من ربك)** فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله. (مجموع الفتاوى ج ١٢ - صـ ١٢٠).

كتب ابن الجوزي:

قال المصنف : أصل هذه الكلمة أعني الصابئين من قولهم صبأت إذا خرجت من شيء إلى شيء وصبأت النجوم إذا ظهرت وصبأ به إذا خرج والصابئون الخارجون من دين إلى دين وللعلماء في مذاهبهم عشرة أقوال :

أحدها: أنهم قوم بين النصارى والمجوس. رواه سالم عن سعيد بن جبير وليث عن مجاهد .

والثاني: أنهم بين اليهود والمجوس. رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

والثالث: أنهم بين اليهود والنصارى. رواه القاسم بن أبي بزة عن مجاهد .

والرابع: أنهم صنف من النصارى ألين قولاً منهم. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والخامس: أنهم قوم من المشركين لا كتاب لهم. رواه القاسم أيضاً عن مجاهد.

والسادس: أنهم كالمجوس. قاله الحسن.

والسابع : أنهم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور . قاله أبو العالية.

والثامن : أنهم قوم يصلون إلى القبلة ويعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور . قاله قتادة ومقاتل.

والتاسع: أنهم طائفة من أهل الكتاب. قاله السدي.

والعاشر: أنهم كانوا يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله. قاله ابن زيد .

مما قاله المصنف

قال المصنف : هذه أقوال المفسرين مثل ابن عباس والقاسم والحسن وغيرهم فأما المتكلمون فقالوا مذهب الصابئين مختلف فيه فمنهم من يقول إن هناك هيولى كان ولم يزل يصنع العالم من ذلك الهيولى وقال أكثرهم العالم ليس بمحدث وسموا الكواكب ملائكة وسماها قوم منهم آلهة وعبدوها وبنوا لها بيوت عبادات وهم يدعون أن بيت الله الحرام واحد منها وهو بيت زحل وزعم بعضهم أنه لا يوصف الله عز وجل إلا بالنفي دون الإثبات ويقال ليس بمحدث ولا موات ولا جاهل ولا عاجز قالوا لئلا يقع تشبيه ولهم تعبدات في شرائع منها أنهم زعموا أن عليهم ثلاث صلوات في كل يوم أولها ثمان ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة وانقضاء وقتها عند طلوع الشمس والثاني خمس ركعات والثالثة كذلك وعليهم صيام شهر أوله الثمان ليال يمضين من آذار وسبعة أيام أولها التسع يبقين من كانون الأول وسبعة أيام أولها الثمان ليال يمضين من شباط ويختمون صيامهم بالصدقة والذبائح وحرموا لحم الجزور في خرافات يضيق الزمان بذكرها ، وزعموا أن الأرواح الخيرة تصعد إلى الكواكب الثابتة وإلى الضياء وأن الشريرة تنزل إلى أسفل الأرضين وإلى الظلمة . وبعضهم يقول هذا العالم لا يفنى وأن الثواب والعقاب في الناسخ ومثل هذه المذاهب لا يحتاج إلى تكلف في ردها إذ هي دعاوى بلا دليل وقد حسن إبليس لأقوام من الصابئين أنهم رأوا الكمال في تحصيل مناسبة بينهم وبين الروحانيات العلوية باستعمال الطهارات وقوانين ودعوات، واشتغلوا بالتنجيم والتسخير وقالوا لا بد من متوسط بين الله وبين خلقه في تعريف المعارف والإرشاد للمصالح إلا أن ذلك المتوسط ينبغي أن يكون روحانياً لا جسمانياً ، قالوا فنحن نحصل لأنفسنا مناسبة قدسية بيننا وبينه فيكون ذلك وسيلة لنا إليه وهؤلاء لا ينكرون بعث الأجساد . (عن تلبيس إبليس ج ١ - صـ ٩٢).

قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني :

وكانت الفرق في زمان إبراهيم الخليل عليه السلام راجعة إلى صنفين اثنين :

أحدهما : الصابئة

والثانية : الحنفاء

فالصابئة كانت تقول : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب يماثلنا في المادة والصورة قالوا : **(ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون)** .

والحنفاء كانت تقول : إنا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات يماثلنا من حيث البشرية ويمايزنا من حيث الروحانية فيتلقى الوحي بطرف الروحانية ويلقي

إلى نوع الإنسان بطرف البشرية وذلك قوله تعالى : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد﴾ وقال عز ذكره : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ .

والفرقة الأولى : هم عبدة الكواكب.

والثانية : هم عبدة الأصنام.

ولما كان الخليل عليه السلام مكلفاً بكسر المذهبين على الفرقتين وتقرير الحنيفية السمحة السهلة احتج على عبدة الأصنام قولاً وفعلاً كسراً من حيث القول وكسراً من حيث الفعل فقال لأبيه آزر : **(يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً)** الآيات حتى بلغ : **(فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم)** وذلك إلزام من حيث الفعل وإفحام من حيث الكسر ففزع من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ وابتدأ بإبطال مذاهب عبدة الكواكب على صيغة الموافقة كما قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ أي كما آتيناه الحجة كذلك نريه المحجة فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ والمخالفة في النهاية ليكون الإلزام أبلغ والإفحام أقوى وإلا فإبراهيم الخليل عليه السلام لم يكن في قوله : **(هذا ربي)** مشركاً كما لم يكن في قوله : **(بل فعله كبيرهم هذا)** كاذباً وسوق الكلام من جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام فلما أظهر الحجة وبين المحجة وقرر الحنيفية التي هي الملة الكبرى والشريعة العظمى وذلك هو الدين القيم وكان الأنبياء من أولاده كلهم يقررون الحنيفية وبالخصوص صاحب شرعنا محمد صلوات الله عليه كان في تقريرها قد بلغ النهاية القصوى وأصاب المرمى وأصمى .

ومن العجب أن التوحيد من أخص أركان الحنيفية ولهذا يقترن نفي الشرك بكل موضع ذكر الحنيفية : **(حنيفاً وما كان من المشركين) (حنفاء لله غير مشركين به)** الملل والنحل ج ١ - صـ ٢٢٨.

قد ذكرنا فيما تقدم أن الصبوة في مقابلة الحنيفية :

وفي اللغة : صبأ الرجل إذا مال وزاغ فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة.

وقد يقال : صبأ الرجل إذا عشق وهوى.

وهم يقولون : الصبوة هي الانحلال عن قيد الرجال.

وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين .

والصابئة تدعي أن مذهبها هو الاكتساب والحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ودعوة الحنفاء إلى الفطرة). الملل والنحل ج ٢ - صـ ٤ .

غزو الصابئة

ذكر في كتاب (لسان الميزان) لابن حجر العسقلاني، بأن الأمير محمد بن مروان بن الحكم الأموي قد غزا الصابئة مراراً وسبى بها. وتفيد المراجع الصابئية بصحة هذه الحوادث والغزوات.

مفسرو القرآن، هل أنصفوا الموحدين المندائيين

كتب الباحث الشيعي علي القطبي مدافعاً عن المندائية يقول:

إخوانكم مسلمون من مذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) يعني شيعة إمامية جعفرية، ويجمعنا معكم عنوان الإنسانية ويجمعنا معكم الاحترام لأنبياء الله تعالى ومنهم يحيى بن زكريا النبي الذي قال فيه الله تعالى وهو يخاطب نبيه زكريا عليه السلام :﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾. آل عمران

لماذ اتهم المفسرون الصابئة بتهم وهم بريئون منها.. فالقرآن الكريم وهو كلام الله تعالى يضع الصابئة في مقام الديانات التوحيدية الخالدة .. يقول كتاب الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

عجباً لبعض المفسرين الإسلاميين .. ومن السنة والشيعة أن أحدهم ينقل رواية عن رواة توفوا منذ الألف عام ويزيد وهو يقول : روى أصحابنا عن عدة من الثقاة أن الصابئة يعبدون النجوم والكواكب والشمس والقمر ويمتهنون السحر..عجيب والله عجيب .!

كتاب الله تعالى يقول عنهم الكلام والذكر الجميل والبعض يتهمهم بالكفر والشرك .. والعياذ بالله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِئُونَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج ١٧)

اتهم بعض المفسرين المندائيين بالسحر والشعوذة في حين أن المندائيين يعتبرون السحر شركاً وكفراً بالله ويؤمنون بالله تعالى ونبوة يحيى بن زكريا .

لكن من باب آخر هناك العديد من العلماء ممن عرفوا حق هذه الطائفة واحترموها غاية الاحترام، ومعظم فقهاء الإمامية الشيعة لم يتعرضوا لأتباع هذه الديانة بالتكفير،

الفقيه العظيم الشريف الرضي. كانت له علاقة صداقة إيمانية مشهورة مع العالم الصابئي أبو إسحاق الصابئي وحين سمع الشريف الرضي بموته كتب قصيدة من ثمانين بيتاً بحق أبو إسحاق الصابئي ومما جاء فيها:

أعلمتَ مَن حملوا على الأعواد؟	أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟
جبلٌ هوى لو خرَّ في البر اغتدى	من وقعه متتابع الأزباد
هذا أبو إسحق يغلق رهنه	هل ذائد أو مانع أو فادي

إن الدموع عليك غير بخيلةٍ والقلب بالسلوان غيرُ جواد
ياليت أني ما اقتنيتك صاحباً كم قنيةٍ جلبت أسىً لفؤادي
ولقد كبا طيفُ الرقاد بناظري أسفاً عليك فلا لَعا لرُقادي
ثكلتك أرضٌ لم تلد لك ثانياً إني ومثلك معوز الميلاد
ضاقت عليّ الأرضُ بعدك كلها وتركتَ أضيقها عليّ بلادي
الفضل ناسب بيننا إن لم يكن شرفي مناسبه ولا ميلادي
إلا تكن من أُسرتي وعشائري فلأنت أعلقهم يداً بودادي
أو لا تكن عالي الأصول فقد وفى عِظمُ الجدود بسؤدد الأجداد.

القرآن الكريم يكرّم الصابئة

بعض المفسرين الفقهاء صرحوا بنسخ الإسلام للأديان الأخرى بما فيها الكتابية، حسب الآية: **"ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين".**

بدأ التصريح بنسخ أو إلغاء الآخر عملياً في الجزيرة العربية بترحيل يهودها ومسيحيي نجران كما تقول بعض المصادر.

ولم يعترف بعض الفقهاء المسلمون للصابئة المندائيين ما اعترف لهم فيه القرآن الكريم، كأهل دين وكتاب في ثلاث سور من سوره وهي: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

تتكرر الآية بالصيغة نفسها ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾،

هل نزلت الآية في سلمان الفارسي.؟.

في أسباب نزول الآية الأولى، يعبّر سبب نزولها وتفسيرها عن نزول الآيتين الأخيرتين: أنها "نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، لما قدم سلمان على رسول الله

(ص) جعل يخبر عن عبادة أصحابه واجتهادهم، وقال: يا رسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله: يا سلمان هم من أهل النار، فأنزل الله: إن الذين آمنوا والذين هادوا ... وتلا قوله: ولا هم يحزنون".

وروي عن، ابن مسعود وابن عباس، وغيرهما: "نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي، وكان من أهل جندي سابور من أشرافهم". وهنا لا يقصد بديانة سلمان المسيحية أو اليهودية، فالكثير منهما دخل الإسلام قبل سلمان، وجاءت فيهما نصوص قرآنية كثيرة، لم تحتج إلى تدخل أحد، سلمان أو غيره، كما لا يقصد فيها المجوسية، وإن كانت منتشرة في بلاد فارس، حيث انحدار سلمان، لان أسباب النزول خاصة بالآية (٦٢) من سورة البقرة، والمجوس لم يذكروا إلا في سورة الحج. لذا فالاحتمال الوارد أن سلمان الفارسي واسمه الحقيقي، حسب الطبري: (مايه بن بوذخشبان بن ده ديره) كان صابئياً مندائياً، فللدين المذكور وجود ببلاد فارس، يوم كان العراق وإيران تحت حكم واحد.

أيها المسلمون المؤمنون

ورد في دعاء مندائي:"يا شلماني وامهيمنى.. يا امهيمنى وشلماني.. لا تيفخون من مملا لخون"، ومعناها: "أيها المسلمون المؤمنون، وأيها المؤمنون والمسلمون، لا تتراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه".

فالآية القرآنية "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين". يعتقد بعض المندائيين أنها تشير إلى مندائية إبراهيم الخليل. وبالتالي فهم يعتبرون الإسلام الأول الذي ورد ذكره في القرآن الكريم هو دين الصابئة..

الباحث الراحل هادي العلوي لم يشر إلى صلة لسلمان بالمندائيين، وأكد ما جاء في سيرة سلمان أنه كان مجوسياً ثم مسيحياً، إلا أنه بلا قصد أعطى إشارة إلى تلك الصلة وهي الموقف من الكنوز، يفهم ذلك من قوله: "وكنت رجحت في دراستي لمسألة تحريم الاكتناز أنها وقعت بتأثير من سلمان". وقد يعزز هذا الرأي أخبار زهد سلمان الفارسي المتماثل مع زهد كهنة المندائيين. ورد تحريم الاكتناز في الآية: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون".

وفي كتاب المندائية المقدس "الكنزاربا" أكثر من نص يحرّم الكَنز منها:

باسم الحي العظيم

"وأن حب الذهب والفضة وجمع الأموال،

صاحبه يموت ميتتين في موت واحد"،

و"لقد ولعت بالفضة والذهب

فألقيا بك في لجة اللهب"،

و"لقد شغلني ذهبي..

وشغلتني فضتي،

ذهبي رماني في الجحيم

وفضتي أسكنتني في ظلام بهيم،

وحليّ ومرجاني..

آليت أن يصادقاني..

فأي شر علماني".

فإن كان سلمان الفارسي مسيحياً أو صابئياً، أو مجوسياً. فهو قد مارس دوراً في تأسيس مذاهب إسلامية انشقت عن الإسلام، بل بقي بعضها إلى يومنا هذا.!.

تفسير الطبري للآية

فسر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تسمية الصابئين، حسب ما ورد في الآية (٦٢) من سورة البقرة بكلام طويل نلخصه بالآتي:

أولاً: أنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا دين لهم.

ثانياً: منزلتهم بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

ثالثاً: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله.

رابعاً: يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة، ويصلون الخمس.

خامساً: فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور.

سادساً: قبيلة من نحو السواد (العراق) ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى.

الزبور ليس صابئياً..!.

لكن ثمة مآخذ على هذا الرأي: فيما يخص الموصل، فلعل المقصودين كانوا الإيزيديين، فهم يقولون لا إله إلا الله، ولم يقروا بنبوة محمد، وقبل أن يحل فيهم الشيخ عدي بن مسافر الذي أدخل إلى دينهم ما أدخل من عقائد جديدة. وما يخص قراءة الصابئة للزبور فهي ما زالت منتشرة بين العوام بالعراق، رغم عدم صحتها، فهو من كتب اليهود، جاء ضمن العهد القديم من "الكتاب المقدس"، تحت اسم "سفر المزامير"، وهي مائة وخمسون مزموراً، أكثرها كان لداوود، لاعلاقة للصابئة المندائيين به.

يضاف إلى ذلك أن الزبور يعني الكتاب، وكتاب الصابئة زبور "الكنزاربا"، لا الزبور الذي غلب لفظه على مزامير داوود فعرفت بالزبور. ليس بين النقاط، التي أتى بها الطبري عن الإخباريين والمفسرين السابقين، ما يشير إلى المندائيين الحاليين غير الرأي القائل: "قبيلة من نحو السواد، ليسوا بالمجوس ولا اليهود ولا النصارى".

إن الجهل في تاريخ هذا الدين، جعل الطبري ينقل عن الصنعاني (ت٢١١هـ) عن سفيان الثوري قولهم:

"الصابئون قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين". لكن الذي يطلع على كتاب "الكنزاربا" وترجمات الكتب الأخرى، مثل "ديوان أباثر" والرسوم الفلكية والكائنات النورانية قد يعذر الزمخشري (٥٣٨هـ) على الشطر الأخير من عبارته التالية: "قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة".

باطنية الصابئة تمثل أحد أسباب سوء فهمها

إن غموض تسمية الصابئة وأحوالهم الدينية كان سببه، كما أسلفنا، باطنية أو سرية الطقوس والنصوص، فهم قوم اعتادوا على العيش تحت الاضطهاد بداية من اليهودية والمسيحية، بواسطة المبشرين الذين اعتبروهم نصارى منحرفين، ثم المسلمين، وأبرز اضطهاد الأخيرين لهم هو فتوى القتل بحقهم من قبل محتسب بغداد والقاضي والفقيه الشافعي أبي سعيد الحسن بن يزيد الأصطخري (ت٣٢٨هـ) أيام القاهر العباسي.

فتاوى إسلامية بقتلهم

روى الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في سياق ترجمة الأصطخري: "أفتاه بقتلهم، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى، وأنهم يعبدون الكواكب، فعزم الخليفة على ذلك، حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له قدر فكف عنهم". ذكرت فتوى القتل في مصادر إسلامية ترجمت لحياة الأصطخري منها "سير أعلام النبلاء" لشمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ)، وعزف عن ذكرها آخرون مثل شمس الدين ابن خِلّكان (ت٦٨١هـ) في "وفيات الأعيان".

كان صاحب فتوى القتل شافعياً من أبرز فقهاء عصره، يعرف بفقيه العراق، وتولى حسبة بغداد، فأحرق مكان الملاهي. وبعد حوالي قرنين من الزمان جاء في رسالة رئيس ديوان الجوالي، محمد بن يحيى بن فضلان (ت٦٣١هـ) الشافعي أيضاً، الخاصة بأهل الذمة إلى الناصر بالله العباسي (ت٦٢٢هـ)، فقرة تذكر بفتوى الأصطخري في الصابئة والحث على تطبيقها: "الصابئة قوم من عبدة الكواكب، يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة) لا ذمة لهم، وكان في قديم

الزمان لهم ذمة، فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الأصطخري، من أصحاب الشافعي، في حقهم، فأفتاه بإراقة دمائهم، وأن لا تقبل منهم الجزية، فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار، فأمسك عنهم، وهم اليوم لا جزية عليهم، ولا يؤخذ منهم شيء، وهم في حكم المسلمين والأمر أعلى".

كانت فتوى القتل المذكورة، في القرن الرابع الهجري، بعد أن أجاز الفقيه الحنفي وقاضي القضاة أبو يوسف، في القرن الثاني الهجري، التعامل مع الصابئة بأخذ الجزية منهم أسوة بـ "جميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة (من غير العرب) والسامرة". وحكم الإمام أبو حنيفة فيهم: "إنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النجوم كما نعظم الكعبة"، وأضاف أبو الثناء الآلوسي: "هم موحدون يعتقدون تأثير النجوم".

والغريب في الأمر أن هذا التعامل مع الصابئة، وإن كان يحمي دماءهم، إلا أنه لا يتناسب مع حكم القرآن فيهم، أسوة باليهود والنصارى، في الآية (٦٢) من سورة البقرة. والغرابة الأكثر، أن أبا يوسف كان عراقياً من أهل السواد، والصابئة المندائيون ليسوا بعيدين عن سمعه ونظره. ويشترط أبو علي الماوردي الشافعي (ت٤٥٠هـ) في أخذ الجزية منهم "إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم، و إن خالفوه في فروعه".

وإن أجاز الاصطخري والماوردي كشافعيين أخذ الجزية من المجوس، لما ورد عن الرسول بشهادة الصحابي عبد الرحمن بن عوف أنه أخذها من أهل البحرين وكانوا مجوساً، فإن ابن قيم الجوزية(ت٧٥١هـ)، وهو حنبلي المذهب، قال: "الصابئة أحسن

حالاً من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأَوْلى، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً، ولا يتمسكون بكتاب، ولا ينتمون إلى ملة، ولا يثبت لهم كتاب ولا شبه كتاب". وهذا اعتراف ضمني من فقيه حنبلي كبير في مذهبه، وتلميذ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد المعروف بابن تيمية (ت٧٢٦هـ)، بكتاب أو شبه كتاب للصابئة.

إن موافقة الصابئة المندائيين للإسلام هو أكثر بكثير من موافقة أو مقاربة اليهود والنصارى له، والذي يدرس كتابهم ويقارنه مع نصوص القرآن، ويدرس فقههم ويقارنه مع الفقه الإسلامي يجد الموافقة واضحة.

من جانب آخر خالفت فتوى الأصطخري وخالف حكم الماوردي وتحريض ابن فضلان ضدهم، والجميع شافعيون، إمامهم الأول محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) حين أفتى: "الصابئون والسامرة مثلهم يؤخذ من جميعهم الجزية، ولا تؤخذ الجزية من أهل الأوثان، ولا ممن عبد ما استحسن من غير أهل الكتاب"، ومَنْ تؤخذ منه الجزية يحرم دمه ولا يطلب منه مجارات اليهود والنصارى بشيء إلا الإقرار بوجود الله. فالماوردي من أهل البصرة، حيث أحد مواطن الصابئة.

قال الشيرازي بحذر وتردد: "فيهم غموض وخلاف، وربما قيل عبدة نجوم". ويرى الطباطبائي في "الميزان" أن عقيدتهم مزيج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرانية. ولعل صاحب الميزان أول المحدثين، من فقهاء المسلمين، ميز بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين، ويؤكد أسباب نزول الآية (٦٢) من سورة البقرة في ديانة سلمان الفارسي. ولا يأتي الطباطبائي، رغم بحثه المطول فيهم، بجديد على ما ورد في كتب الأقدمين.

فتاوى شيعية حول المندائية

محمد حسين فضل الله

الشيخ محمد حسين فضل الله، بحث في تراث المؤرخين، وقال:

الصابئة فرقتان:

المنديا أو نصارى يوحنا المعمدان

وصابئة حران الوثنيون،

ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى، على الأرجح من بحث "الصابئة المندائيون" لليدي دراور، إلى أن "الصابئة الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا، ولا شك في أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري (ص ب أ) أي غطس، ثم سقط الغين، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين".

آية الله فضل الله

ولعل آية الله فضل الله ينفرد من بين علماء الدين والمفسرين بتحفظه على قبول نسخ الآيات التي ورد فيها اسم الصابئة بالآية: "ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"، إذ قال: "نتحفظ على هذا الجواب، لأن مدلول هذه الآية لا يتنافى مع مدلول تلك، حتى نفرض نسخ الثانية للأولى، لأن الظاهر إرادة الإسلام بمعناه المصطلح، كما يلوح ذلك من صدرها، وهو الالتقاء على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح". وهذا ما تقره الأديان المشار إليها في الآية.

الشيخ محمد جواد مغنية

ويقترب الشيخ محمد جواد مغنية، فيقول: من الصواب عندما قال في الصابئين:"قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء، ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير والشر، والصحة والمرض، ومنهم طائفة في العراق الآن". وعلى خلاف مَنْ اشتق

تسمية الصابئة من صبأ العبرانية أي غطس وتوضأ، وجد مغنية أن التسمية مشتقة من"صبأت النجوم أي طلعت"، ويعدهم بأقدم الأديان في التاريخ.

فقهاء الشيعة لم يحرّضوا ضد المندائية

من صاحب أكبر موسوعة فقهية "جواهر الكلام" النجفي، من أعلام القرن التاسع عشر، وانتهاء بالسيد السيستاني، المرجع الشيعي الحالي بالنجف، لم نجد رأياً محرضاً في التعامل ضد أهل هذا الدين، بل إن آية الله العظمى أبا القاسم الخوئي اعتبرهم من أهل الكتاب، وقدم مرشد الدولة الإيرانية آية الله علي خامنئي بحثاً مفصلاً فيهم عدهم من أهل الكتاب ومن الأديان الموحدة.

كان أكثر اختلاط المندائيين بالمذهب الشيعي في جنوب العراق مقارنة بالأديان والمذاهب الأخرى، وكانوا سبباً في حياة المنطقة الاقتصادية، فهم لفترة طويلة ظلوا منتجي وسائل الإنتاج، من أدوات الصيد والزراعة والنقل. فلابد أن يحدث احتكاك وتعالجه فتاوى الفقهاء. قال آية الله أبو القاسم الخوئي "الصابئي كان من أهل الكتاب كما هو الظاهر"(٥٠) جاء ذلك في أمر رجل صابئي أشهر إسلامه معتنقاً المذهب الجعفري، وطالبته زوجته بالنفقة في محكمة من محاكم بغداد الشرعية.

آية الله علي الخامنئي

وطرح آية الله علي الخامنئي جملة أمور بشأنهم، فلهم بإيران طائفة كبيرة كانت جزءاً من سكان العراق قبل قطع الأهواز عنها، لهذا نظر مرشد الدولة الإيرانية في أمرهم عن قرب، باحثاً في كتبهم المترجمة إلى الفارسية والعربية، وربما كان أول فقيه يبتعد عن النصوص الشرعية، وليطلع على كتبهم ويتابع ممارستهم الدينية عن كثب، فقال: "نتيجة البحث في النقطة الأولى: إن الأقوى والأظهر بحسب الأدلة أن الصابئيين يعدّون من أهل الكتاب".

ولأنه نظر في واقع هذا الدين، لا فيما كُتب وقيل، نفى خامنئي أن يكون الصابئة ديانة متفرعة من الأديان الأخرى بل نظر إليها كديانة مستقلة. قال: "هل الصابئة يعدّون من شعب بعض الأديان الثلاثة: اليهود والنصارى والمجوس، أو إنهم

نحلة أخرى غير هؤلاء؟ والجواب على ذلك: قد علم من بعض ما ذكرنا في توضيح النقطة الأولى، فلا دليل على ما قيل، وقد مضى ما نقلناه من كلمات بعض الفقهاء، من أنهم شعبة من اليهود أو أنهم مجوسيون وأمثال ذلك مما نقله في الجواهر عن غير واحد من الفقهاء كالشافعي، وابن حنبل، والسدي، ومالك وغيرهم، بل لعل مقتضى ما ذكرنا الجزم بخلافه".

ولعل الخامنئي في كلمته التالية قدم نقداً غير مباشر للفقهاء الذين لم ينظروا في أمر هذا الدين وهو حيٌّ بينهم، قال: "والحق الذي ينبغي الاعتراف به هو أننا لا نعرف من المعارف والأحكام الدينية لهذه النحلة التاريخية، والتي أصبح المنتمون إليها موجودين بين أيدينا وفي عقر بلادنا، شيئاً كثيراً تسكن النفس بملاحظته إلى معرفة أصحابها، والباحث في هذا الموضوع يجد في حقل البحث الموضوعي فيه فراغاً كبيراً لم يسدّ مع الأسف".

وقال الخامنئي: "فمن جملة عقائدهم التي يدّعونها ويصرون عليها التوحيد".

ويستشهد آية الله الخامنئي من بوثة التوحيد النص المندائي التالي:

"إلهي منك كل شيء،

يا عظيم يا سبحان،

يا حكيم يا عظيم،

يا الله المتعال الكريم،

علت قدرتك على كل شيء،

يا من ليس له شبيه،

ولا نظير،

يا راحم المؤمنين،

يا منجي المؤمنين،

يا عزيز يا حكيم،

يا من ليس له شريك في قدرته،

أسبح باسمك".

إن ما أكده مرشد الدولة الإيرانية في حكم الصابئة المندائيين هو:

"أن في عقائدهم جملة من العقائد التوحيدية الحقّة المقبولة، وزمرة من الأباطيل المنافية للعقيدة التوحيدية الخالصة".

كل ما أفصح به آية الله علي الخامنئي في أمر الصابئة يرون هم أنه صحيح بحقهم ومنصف لهم. فمرشد الدولة الإيرانية كان شديد الوعي والحرص على المسئولية تجاه شعبه. ولم يأخذ بفتاوى السلف القدماء بل قام هو نفسه بتقصي الحقائق وبالتعرف على عقائد الصابئة وقام بمقابلة رجال دينهم وكتّابهم وصحفييهم.

صداقة الشريف الرضي بالصابئ

كانت تلك الصداقة الروحية بين مسلم وصابئي، الصداقة التي كان يضرب فيها المثل، بين جامع "نهج البلاغة" ونقيب الطالبيين وتلميذ الشيخ المفيد الشريف محمد حسين الرضي (ت٤٠٦هـ) وبين الصابئي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال (ت٣٨٤هـ)، التي أخبارهما ملأت صفحات التاريخ وأخبار الأدب، ورسائلهما الوجدانية استغرقت كتاباً صدر بعنوان "رسائل الصابئ والشريف الرضي". وكانت أشهر قصائد الشريف الرضي في رثاء إبراهيم الصابئ، التي استغرقت ثمانين بيتاً

صورة للصابئة وهم يصلون

(الموصل.. في شمالها تقع مدينة حران الشهيرة وهي الآن تابعة إلى جنوب تركيا)

الصابئة الحرانية

سميت بالحرانية نسبة إلى بلدة حران . قال القاضي أحمد الشهير المعروف **ابن خلكان** في كتابه وفيات الأعيان وإنباء الزمان إن حران مدينة مشهورة في الجزيرة تقع على نهر بلباس أحد روافد نهر الفرات وذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن هاران ابن عم إبراهيم الخليل (ع) وأبو زوجته سارة عمرها أي بناها فسميت باسمه هاران وقيل إن لإبراهيم (ع) أخاً اسمه هاران أبو لوط هو الذي بناها.

وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون نسبة إلى محل سكناهم حران ليس إلا.

رواية ابن النديم

قال ابن النديم : قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة : (أن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو فتلقاه الناس يدعون له وفيهم جماعة من **الحرانيين** وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرة جد سنان بن ثابت فأنكر المأمون زيهم

وقال لهم من انتم من الذمة ؟

فقالوا : نحن الحرانية .

قال : أنصارى انتم ؟

قالوا : لا ،

قال لهم : أفلكم كتاب أم نبي ؟

فجمجموا في القول

فقال : فأنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي وانتم حلال دماؤكم لاذمة لكم . فقالوا : نحن نؤدي الجزية .

فقال لهم : إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان . الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه ولهم كتاب وصالحه المسلمون على ذلك، فأنتم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الآن أحد الأمرين : إما أن تنتحلوا دين الإسلام أو دينا آخر من الأديان التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه وإلا قتلتكم عن آخركم، فإني قد أنذرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه فإن أنتم دخلتم الإسلام أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم).

ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية وتنصر كثير منهم ولبسوا زنانير وأسلم منهم طائفة وبقي منهم شرذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه فقال لهم : قد وجدت شيئا تنجون به وتسلمون من القتل .

فحملوا إليه مالاً عظيما من بيت مالهم أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية أعدوه إلى النوائب.

فقال لهم : إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القران الكريم فانتحلوه فانتم تنجون به.

وقضى أن المأمون توفي في سفرته تلك بالبذندون فانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة .

فلما اتصل بهم وفاة المأمون، ارتد أكثر من كان تنصر منهم، ورجع إلى الحرانية فطولوا شعورهم حسب ماكان عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية لأنه من لبس أصحاب السلطان. ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفاً من أن يقتل فأقاموا متسترين بالإسلام فكانوا يتزوجون بنساء حرانيات ويجعلون الولد الذكر مسلماً، والأنثى حرانية. وهذه كانت سبيل كل أهل ترعوز وسلمسبين، القريتين المشهورتين بالقرب من حران.

تحقيق البروفسور أوليري في النص

قال **البروفيسور أوليري** عن صابئة حران : (إن قصة الحرانيين مع المأمون ماهي إلا محاولة لتفسير كيف أصبح الحرانيون يسمون بالصابئين وهو اسم نعرف الآن أنه لايعود لهم. إن الصابئين الحقيقيين كانوا في الجنوب العربي لا علاقة لهم بحران، إن المندائيين في جنوب العراق أهل معمدي الآباء المسيحيين الأوائل، والكتاب الربانيين الذين حصلوا على اسم (المتعمدين) من تطهرهم المستمر المتزمت، كانوا يسمونه بالآرامية (بالصابئين) من أصل الفعل (صبا الآرامي) بمعنى يغطس ويتعمد وكان المندائيون هؤلاء معرفيين (غنوصيين) ولم يكن أهل حران معرفيين بل كانت لهم هياكل مكرسة للكواكب مما جعل الخلط بينهم وبين المندائيين ممكناً ومن المحتمل أن تكون الإفلاطونية الحديثة الحرانية قد امتزجت بالعقائد المعرفية.

فوارق بين المندائيين والحرانيين

وليست العلاقة بين الصابئة المندائيين والحرانيين مجرد تسمية تجمع بينهم . إن هناك فرقاً في الدين كبيراً بين صابئة حران والصابئة المندائيين وهذه بعض الاختلافات فيما بينهم :

١- **اختلافهم في بناء المعابد** : يسمي المندائيون معبدهم بـ (المندي) وهو عبارة عن كوخ من القصب منصوب على شاطئ نهر جار أو نبع ماء جار حي وباب المندي متجه نحو الجنوب ومحرابه نحو الشمال لاعتقادهم أنه المكان الذي يحكم فيه على أعمال الناس بالصلاح أو الفساد يوم القيامة. ومعابد المندائية خالية من إي تمثال أو صنم لتعظيمهم الماء الحي الجاري . وفي المندي يمارسون صلواتهم العلنية بعد تعمدهم بالماء الجاري وفيه يعقدون قران زواجهم وفيه يقدمون القرابين في الأعياد. جاء في كتاب الكنزا ربا : (كل من صنع تمثالاً أو صنماً أو جسماً ليعبده من دون الله تكتوى شفاهه ويداه بنار حامية ويتمنى الموت ولكن الموت لايدركه). بينما بنى الحرانية معابدهم الحجرية على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية وأقاموا فيها هياكل وتماثيل للكواكب السبعة وفيها يمارسون صلواتهم بصورة سرية.

٢- **اختلافهم في الدفن وتوجيه القبور**: فالمندائيون تتجه قبورهم شمال – جنوب وللقبر في الأعلى شكل دائري ويوجه الوجه باتجاه الشمال ويضعون في فمه حصاة صغيرة أو قليلاً من التراب ويدفن مع الميت خاتم العمادة (لرجال الدين). أما الحرانيون فقبورهم تتجه غرب – شرق ويكون الرأس باتجاه الغرب والوجه نحو الأعلى باتجاه الشمال الشرقي ويدفن مع الميت متاعه وثيابه وخاتمه، وخواتمهم عليها تماثيل منحوتة على حجارة صغيرة (ومعظم فصوص الخواتم من العقيق) ولقبور الحرانية شواهد طويلة على شكل تماثيل. وفي كلا الديانتين المندائية والحرانية لا يظهرون الحزن على الميت . فاللطم والبكاء محرمان.

عقائد السحر

ثمة دراسات تحليلية تاريخية تناقض النصوص المندائية والرأي المندائي المعلن، وتقول هذه التحليلات، بأن عقائد السحر هي التي نزلت على البابليين في الألفية الخامسة ق.م وكانت بداية الحضارة السومرية في بلاد الرافدين، حيث كون السومريون العبيديون بجنوب العراق المدن السومرية الرئيسية كأور عاصمة "بابل" ونيبور ولارسا ولجاش وكولاب وكيش وإيزين وإريدو و أد.

و اشتهرت بابل في ذلك الوقت بممارسات كثير من الطقوس و التعاليم السحرية، ففي تلك الفترة تقريباً أنزل الله الملكين هاروت وماروت بمدينة بابل لتعليم الناس السحر ابتلاءً من الله عز وجل وللتمييز بين السحر والمعجزة، حتى يتبين للناس صدق الرسل و الأنبياء و كذب الدجاجلة و السحرة، و في إنزال السحر على يد الملكين في بابل يقول الله تعالى عن اليهود الذين جاؤوا من بعد نزول الملكين "هاروت و ماروت" بمُددٍ طويلةٍ :

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠٢) .

و انتشر السحر في بابل منذ أيام السومريين، و بما أنه من المشهور تاريخياً أن السحر بدأ في بلاد فارس في الألف الخامسة قبل الميلاد على يد كاهن يسمى "زورستر" ويعتبر هذا الساحر واضع طرق السحر وأسسه التي سار عليها الكنعانيون والمصريون والهنود وغيرهم، فالأرجح أن يكون زورستر قد أخذ ذلك عن أهل بابل،

إذ ان البابليين السومريين العبيديين هاجروا إلى مرتفعات إيران بسبب الفيضانات السنوية التي كانت تهدد حياتهم ومزروعاتهم ونقلوا معهم تقاليدهم في بناء المنازل . و استمرت ٤٠٠ سنة حتى انحسرت مياه الفيضان عن جنوب وادي الرافدين . وفي القرن العشرين ق.م، و في عهد الكلدانيين عاش إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان السحر قد استشرى في أهل بابل حتى ضرب المثل في إتقان السحر بحكماء وكهنة و سحرة بابل، الذين كانوا قوماً صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة، ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها، وعملوا أوثاناً على أسمائها، وجعلوا لكل واحد منها هيكلاً فيه صنمه، ويتقربون إليها بضروب من الأفعال على حسب اعتقاداتهم من موافقه ذلك للكوكب الذي يطلبون منه بزعمهم إليه بما يوافق المشتري من الرُّقى والعُقَد والنفث فيها، ومن طلب شيئاً من الشر والحرب والموت والبوار لغيره تقرب بزعمهم إلى زحل بما يوافقه من ذلك، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمهم إلى المريخ بما يوافقه من ذبح بعض الحيوانات و قد اتخذت تلك الأساطير والخرافات السومرية والبابلية و ما خالطها من الشعبذات و الطلاسم و الممارسات السحرية عدة امتدادات دينية و عرقية خلال مساراتها التاريخية، و للتأمُّل يلاحظ ـ مثلاً ـ أن طقوس التعميد ـ و هي طقوس تنشأ في المجتمعات التي تعيش على ضفاف الأنهار الكبيرة كنهر الغانج في الهند، و كذلك الحضارات القديمة في بلاد الرافدين ـ قد تسربت إلى كل من الصابئة و اليهود والنصارى مع كثير من الطقوس و التعاليم الطوطمائية عن طريق الثقافة البابلية.

ومن تلك الامتدادات التاريخية الشهيرة:

١- الامتداد التاريخي من خلال تلك الحضارات المعاصرة أو التالية للحضارة البابلية كالحضارة الفرعونية مثلاً و كذلك الفينيقيين و التدمريين.

٢- الامتداد المندائي من خلال فرقة الصابئين المندائيين، و التي تسربت عبرها كثير من تلك الطقوس و التعاليم، و إن كان أكثرها ينحصر في عالم الأفلاك ومخاطبة النجوم، والذي اشتهرت به تلك الطائفة، وقد انتقلت بعض تلك الممارسات إلى بعض الطوائف الإسماعيلية.

٣- الامتداد التوراتي في الديانة اليهودية من خلال الشروحات التلمودية للتوراة.

٤- الامتداد التوراتي في الديانة االنصرانية من خلال شروحات العهد الجديد "الإنجيل"، و هذه أقل الامتدادات، و إن كانت نظهر جليا في الطائفة السريانية " الآرامية".

٥- الامتداد التوراتي من خلال الطائفة القبالية "طائفة الكابالا" في الديانة اليهودية و كتابها الأسود المعرروف بـ "الزوهار".

القبالة اليهودية

الكابالا فرقة أو مذهب يهودي صوفي يقوم على تفسيرات باطنية للأفكار التلمودية من التعاليم الغيبية و الروحانية والتي تشتمل على السحر والممارسات الصوفية، ولا يرفض اليهود هذه التعاليم بل يعتبرونها الحلقة الداخلية التي لا يكشف عنها "للأغيار" والتي تعبر عن التقوى والولاء في ديانتهم.

وقد سميت أول أمرها: الحكمة المستورة، ومن ثم بات اسمها القبالة؛ والكلمة من أصل آرامي ومعناها القبول أو تلقي الرواية الشفهية. ومن أهم الشخصيات التي كونت الخطوط العريضة للكابالا : سمعان بن يوشاي من القرن الثاني الميلادي، وقد اختفى عن الأنظار مدة في مغارة ومن ثم خرج عليهم ليقول: إن أسراراً قد كشفت له، وأنه قد حصَل له شكلٌ من الكشف أو الإلهام.

و قد تأثرت القبالة بفلسفات هندية وفارسية ويونانية إشراقية، كما أنها أخذت بفكرة الانتظار. وفكرة القبالة تشق طريقها بقوة بين اليهود بدءاً من القرن الثالث عشر الميلادي، وقد ظهرت مجموعة نصوص عندهم جمعوها في كتاب أو سفر سموه: زوهار. والزوهار كلمة آرامية معناها النور أو الضياء، وقد دون الزوهار بالآرامية موسى اللبوني (١٢٥٠ م ـ ١٣٠٥ م) في أسبانيا، في التعليق على الكتاب المقدس إلا أن قسماً كبيراً من هذه النصوص تعود إلى القرن الثاني الميلادي مع سمعان بن يوشاي يضم ذروة فكر الكابالين، و يوجد مركز الكابالا الآن في لوس أنجلوس، كما يقيم الزعيم الروحي لطائفة الكابالا الحاخام فيليب بيرغ في مدينة نيويورك.

الاسم العربي من الآرامية

يقول الدكتور رودلف ماتسوخ، المتخصص في اللغة والادب المندائي : الـ"صابئ" هو الاسم العربي لهذه المجموعة، وهو مأخوذ من الارامية. وأن الـ" صبغ" يعني التعميد، لأن أساس دينهم هو عملية التعميد. فالشخص الذي يرتكب خطيئة ما يجب ان يعمد بماء جار، ليدل ذلك أن المذنب عاد ثانية إلى جادة الله وأصبح طاهراً من جديد.

مفردات مسيحية سريانية

ويعتبر بعض العلماء، أمثال جون باليس وبوركيت، أن مفردات المذهب الصابئي المتعلقة بالتوراة والإنجيل، مأخوذة من المسيحيين السريان (النساطرة).

لقد جمع ليتزمن عدة نماذج من النصوص السريانية، التي استخدمت فيها كلمة الأردن بمثابة إناء للتعميد زاعماً أن الصابئة أخذوا هذه الكلمة من المسيحيين السريان. بيد أن باحثين آخرين لم يقتنعوا بهذا الاستنتاج، واعتبروا (الاردن) بلغة الصابئة، كلمة أصيلة وأساسية واصطلاح حيوي ومهم في دينهم. ومما يثير الخلاف أيضاً هو أن الصابئة يطلقون على التعميد في ماء جار (ماسويتا) ولاعلاقة بين هذه التسمية و" المعمودية" السريانية، والتي تطلق على تعميد المسيحيين.

يسمي الصابئة أنفسهم بالمندائيين، وهي صفة مشتقة من كلمة "مندا" الآرامية والتي تعني (العلم والعرفان). فالمندائي يعني العارف. واللغة الصابئية أو المندائية هي إحدى اللهجات الآرامية – البابلية. ولقد تم الحفاظ على كلمة " ماندا " من أجل

المصطلح الديني البحت والذي يعني " معرفة الوجود ". واشتقت كلمة " مندا " من الأصل والتي تقابلها كلمة " جنوسيس " Gnosis اليونانية كلمة Manda d' Hayya .

الأصل من العرفان الصوفي

طرح آخر حول أصل المندائية يقول: لايمكن للمذهب المندائي ان ينوجد بمعزل عن " معرفة الوجود "، كالمسيحية التي لاوجود لها بدون المسيح. إن هذا العرفان أو التصوف هو أساس الدين الصابئي، ويعتمد تماماً على مانعرفه من أنواع العرفان والتصوف المختلفة. فالتصوف هو أحد فروع وأوجه العرفان. والتصوف نهج وطريقة وسلوك عملي استمد مصدره من ينبوع العرفان. أما العرفان فهو مفهوم عام وأكثر شمولية، يشتمل على التصوف ومناهج أخرى أيضاً. وبعبارة أخرى، إن الفرق بين التصوف والعرفان هو كالفرق بين العام والخاص. بالأحرى يمكن أن يكون المرء عارفاً وأن لايكون متصوفا. كما يمكن أن يكون متصوفاً في الظاهر، وهو لايمت بصلة إلى العرفان. ويعتبر البعض العرفان، الجانب العلمي والفكري للتصوف. أما التصوف فهو الجانب العملي من العرفان.

وحول العرفان، يذكر المؤرخ السرياني **تيودور برخونائي**، الذي عاش سنة ٧٩٢ ميلادية، ثلاث طرق آلت إلى ظهور المذهب الصابئي.

ابن النديم اعتبر المغتسلة هم " صابئة البطايح " صابئة ناحية ميسان تحديداً.

openkanal.com

كما أطلقت تسمية " النصورائي " على المندائيين. إلا أنهم كانوا يستخدمون هذه التسمية للروحانيين (رجال الدين) والمؤمنين الحقيقيين (التقاة). وفي كتبهم الدينية عنت الكلمة رجال الدين الذين يراعون تطبيق الأحكام والأوامر الدينية، قبل غيرهم. وقد أشار البروفيسور ليدزبارسكي، إلى أن هذه الكلمة هي نفس كامة (الناصري) التي وردت في إنجيل متى، كلقب للسيد المسيح. فإنجيل متى يعتبر أن الاسم مشتق من مدينة الناصرة، مكان إقامة السيد المسيح. بيد أن اشتقاقاً كهذا غير صحيح، والمعنى الحقيقي لهذه الكلمة هو " حافظ القوانين والأوامر الدينية ". ويبدو أن هذه الكلمة أدت بالبعض إلى أن يعتبروا مجموعة منهم نصارى، وأن يعتبروا النصرائي، نصرانياً.

دراشي يحيى ظهر بعد الإسلام

إضافة إلى ذلك فإن قصص الصابئة المتعلقة ب " يحيى المعمدان " كزعيم لهذا الدين، جمعت في كتاب يحمل عنوان " دراشي د يحيى "Draschi d' Jhia، والتي تعني " دراسات يحيى ". بيد أن **هذا الكتاب حديث تماماً، وقد تم جمعه بعد الإسلام**. بالإضافة إلى ذلك فإن اسم يحيى بالآرامية هو يوحنا، أي أن الاسم الأول كلمة معربة. وهذه شهادة على حداثة هذه الدراسات [حسب الدكتور ماتسوخ في قاموسه (إيران زمين) ٢٦ :٨]

فرضية المسيحيون المنحرفون

ومن الأسماء الأخرى التي سمي بها الصابئة "المسيحيون المنحرفون". إذ يرى أتباع هذا الرأي أن الصابئة يعتبرون السيد المسيح نبياً كاذباً، والروح القدس أم الشياطين، وإبليس و"الأعور" قائد جند الظلمة. وكذلك ترى أن أم المسيح وكذلك أنبياء الأقوام السامية قد ولدوا جميعاً من الروح القدس مع الشياطين من أم واحدة.

ونلاحظ ارتباط العقيدة المندائية بتاريخ الطائفة، فهم اختلفوا مع اليهود، وتعرضوا لأذى كبير منهم. وبنفس الوقت فالنصوص المندائية المقدسة، وكذا التاريخ يعادي اليهود. والمسيحية التي نزلت على قوم يهود.

تاريخ الصابئة أقدم من التاريخ المسيحي

على الرغم من وجود اختلافات كبيرة فيما يخص ظهور الصابئة والدين الذي يعتنقونه، إلا أن تاريخهم، أقدم من تاريخ الدين المسيحي في فلسطين.

ويعزى التشابك والتداخل والتعقيدات المتداخلة في هذا الدين إلى أنها متأتية من كتب الصابئة الدينية كتبت في وقت متأخر نسبياً.

تأثروا بالإسلام

يقول الدكتور ماتسوخ في قاموس (إيران زمين) ج٨ ص٢٥ : "بعد هجرة الصابئة من فلسطين إلى بلاد مابين النهرين، فإن أديانا عديدة كالدين البابلي والزرادشتي والمسيحي وأخيراً الإسلام، قد اثرت على هذا الدين، إلى درجة أنه أصبح من الصعب جداً فرز العناصر الأصلية عن التأثيرات البعيدة ".

ومما يلفت الانتباه أيضاً، أن بعض العلماء كانوا يتصورون، أن هذا الدين وجد في بلاد مابين النهرين نفسها، وأن عناصره الفلسطينية جاءت نتيجة العلاقة مع اليهود البابليين والمسيحيين السريان – حسب المصدر نفسه.

بيد أن التمعن في عناصر هذا المذهب الأصلية منها تشير إلى أن الدين الصابئي ظهر في فلسطين.

فرضية: فلسطين منشأ الصابئة

إن مفردات هذا الدين الأساسية مثل: معرفة الوجود والنصورائي والأردن، والتي بدونها لايمكن تصور هذا المذهب، تدل وحسب مؤشرات لغوية-حضارية، على ظهور هذه الطائفة في فلسطين أول الأمر. مما يؤكد ذلك أن وثائق الصابئة القديمة منها تعتبر فلسطين مملكتهم الأصلية، وجميع الأماكن المقدسة المذكورة في

الكتب الدينية، كالكرمل ولبنان وحران... وغيرها، هي فلسطينية وليست بابلية [جينزا Genza يمينا ٢٣١:٥] يتذكر الصابئة، اليهود بالكره وروح التبشير بالانتقام والضغينة. وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على الإهانة والتعذيب الذي تعرضوا له على أيدي اليهود". ومن الطبيعي أن تقع أحداث كهذه في فلسطين، إذ كانت أورشليم مكان تعذيب الصابئة ومعاناتهم. وقد غادر هذه الديار وبسبب هذا الاضطهاد ٣٦٥ كاهناً صابئياً [نفس المصدر السابق].

الهجرة إلى حران

في عام ١٩٥٣ أصدرت السيدة (ليدي دراور) في الفاتيكان، وثيقة مهمة عن الصابئة تحت عنوان " حران الداخلية " تحكي قصة تاريخية عن الصابئة تعود إلى هجرة أتباع هذا المذهب إلى حران في عهد الملك الفرثي إرتيانوس الثالث، الذي يعتبره الدكتور ماتسوخ معاصراً للسيد المسيح، وقد حكم من سنة ١٢-٣٨ للميلاد. ويعتقد أن يكون قد هاجر الصابئة إلى مدينة حران في السنوات الأخيرة لحكم هذا الملك [ماتسوخ (إيران زمين) ٨:٣٠]

تأثير الصابئة على مذهب ماني

إن ما يلقى اهتماماً كبيراً في النقاشات الدائرة حول الصابئة، هو **التأثير الكبير للمذهب الصابئي على المذهب المانوي**. فبعد أن شعر الأب ماني تغيراً وثورة في روحه وقلبه وناداه الوحي داعياً إياه لاحتراز الخمر واللحم ومعاشرة النساء، رحل إلى الجنوب واستقر في ناحية ميسان أو سهل ميسان، وانضم إلى فرقة " **المغتسلة** " الدينية. وترعرع ماني وسط القوم هناك. ولهذا يمكن القول إن قسماً من أفكار ماني هي انعكاس شديد لأفكار الصابئة الدينية.

إضافة إلى ذلك، فهناك الكثير من الأفكار والمفردات الدينية المشتركة بين المذهبين الصابئي والمانوي،

- كالتضاد بين النور والظلام وملكها على يد منجم،
- والإيمان بنبي النور أو الوجود الذي أرسل إلى آدم – الإنسان الأول،

- ومصير الروح بعد الموت ورحيلها إلى عالم النور....

وانطلاقاً من كون المذهب الصابئي أقدم من المذهب المانوي، فإن هذا الشبه يدل على تأثير المذهب الصابئي على المذهب المانوي [كتاب المندائيين (سدرا ربا) Sidra Rabbai]

أحسن الوسائل لمعرفة الغنوصية

يقول ماتسوخ في قاموسه المذكور، إن الصابئة هي الطائفة العرفانية الوحيدة قبل الإسلام التي بقيت لحد الآن. وإنها حافظت بدقة، لحسن الحظ، على جميع كتبها الدينية. واستناداً إلى ذلك فإن هذا المذهب هو من أحسن الوسائل لمعرفة الغنوصية Gnosticesim، والتي تعني العرفان القديم. وإن ما يلفت النظر هو تشابه الأفكار الأساسية للصابئة مع أصل العرفان المسيحي المثبتة بشكل خاص في إنجيل يوحنا، وهي متساوية ومترابطة الواحدة بالأخرى، دون شك. [ماتسوخ ٢٣ :٨]

آراء المسلمين

ماذكر في القران الكريم حول الصابئة يحتاج لدراسة متأنية.

فقد رافقت كلمة " الصابئة " ثلاث مرات كلمتي اليهود والمسيحيين [يقال إن المراد من "الصابئين" في سورتي البقرة والمائدة، هم القوم الموحدون. ومن "الصابئين" في سورة الحج، هم الصابئون المشركون (أعلام القرآن، ٣٩)]

فقد صنف علماء الإسلام " الصابئين " إلى مجموعتين: **أحناف ومشركين**. واعتبروا الحنفاء أتباع إبراهيم، أما المشركون فهم الذين يؤمنون بالنجوم.

يتحدث ابن النديم في فصل " أسماء كتب الشرائع " أيضاً عن " الصابئين الإبراهيميين" ويبرز الخلاف بين المفسرين حول هذه الجماعة. لقد وردت كلمة "الصابئين" في القرآن الكريم بمستوى واحد مع أصحاب الكتاب. أي أن الإسلام اعتبرهم من أهل الكتاب أيضاً أسوة بالمسيحيين واليهود. وتشير الرقاق والألواح المعدنية الموجودة اليوم في المتحف البريطاني، إلى وجود الخط الصابئي في القرن

الرابع الميلادي، كما هو الحال بالنسبة لقصص الصابئة الدينية التي كانت محفوظة في هيئة كتاب، قبل الإسلام.

كان المندائيون يتحلون بشيء من الإيمان حيال التوحيد. ومن هنا تأتّى اعتقاد بعض العلماء، كون أن المقصود بالصابئين في عهد الرسول، هم المندائيون. بيد أن الذي أدى إلى ملابسات الموضوع فهو وجود صابئة حران، الذين كانوا مشركين وعبدة نجوم.

ومن هنا لابد من التمييز بين هاتين الفئتين من الصابئة. وكما رأينا فإن المندائيين كان لهم أصل فلسطيني. بيد أن ما قيل عن عبدة الأوثان السريان الذين اشتهروا في حران يختلف عن ذلك تماماً. وكان لهذه الفئة من الصابئين في حران، حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، مدارس وكتب باللغة السريانية، وكانت وسيلة لإيصال الحضارة اليونانية. واشتهر في وسط هذه الفئة علماء كبار تركوا أثراً كبيراً على الحضارة العربية. وكان هناك تداخل كبير بين هاتين الفئتين من الصابئة وإلى يوم قريب. وأول من ميز بينهما هو خولسون استناداً إلى ابن النديم.

وقد ظهر هذا الإشكال لدى عبور الخليفة العباسي المأمون، في المعركة الأخيرة مع الروم الشرقيين، من إقليم حران، وملاحظته بين المستقبلين أناساً بمظهر مريب وشعر طويل وملابس ضيقة، فاستفسر عن أصلهم ومعتقدهم، إلا أنه لم يلق جواباً شافياً، فأمهلهم فرصة إلى عودته من المعركة: إما الإسلام أو اعتناق أحد الأديان السماوية المذكورة في كتب الله. مما أدى هذا إلى اعتناق البعض منهم الدين الإسلامي، أما البقية فقد انتابهم قلق شديد إلى أن جاءهم فقيه مسلم ليريهم، مقابل القليل من الذهب، الطريق لحل معضلتهم، بأن يعرفوا منذ ذلك الوقت كطائفة من الصابئين. مؤكداً لهم بذكر اسم هذه الطائفة في القرآن. وهكذا احتفظ هؤلاء ومنذ ذلك التاريخ باسم الصابئين.

يقول أبو ريحان البيروني " يطلق أحياناً على الحرانيين، بقايا المؤمنين بدين مغرب الأرض القديم، والذين تخلى عنهم الروم بعد المسيحية، بالصابئة، رغم أنهم أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية في الدولة العباسية سنة ٢٢٨ هجرية، وذلك لتراعى

شروط الذمة بحقهم". كذلك إن وضع الحلول لهذه الإشكالية ليس بالشيء السهل. فحسب كتابات أبيفانيوس وهيبوليثوس (من كتاب قبل الإسلام) أن اسم الصابئة كان قبل الإسلام يستخدم للمشركين مابين النهرين ومدينة حران كذلك.

واستناداً إلى كتب الصابئة أنفسهم، كانت مدينة حران محط اهتمام كبير من الصابئة وعبر تاريخهم. فبعد أن هرب الصابئة أثر اضطهاد اليهود لهم، لجأوا إلى حران وشيدوا معبداً لهم فيها. وهذا يدل على وجود صلة بين الحرانيين والصابئة.

يقول الدكتور ماتسوخ : يبدو أن حران كانت تتمتع بحرية المعتقدات، مما حدا بها إلى قبول اللاجئين المندائيين وممارسة معتقداتهم الدينية بحرية. وإن تحتاج دقائق الأمور إلى تسليط أضواء أخرى لتبيان الحقائق. وهذه من مهام المتخصصين في تاريخ الأديان.

openkandil.com